بوادر النقد في الجزائر

بله باسي رفيقة
إشراف الدكتور: مناعي بشير
مخبر علم النفس العصبي المعرفي والاجتماعي
جامعة حمة لخضر الوادي

ملخص
يكتسي النقد أهمية بالغة في الحركة الأدبية كونه يعدّ مرافقا ومقوّما لها، وهو كغيره لم يخلق من عدم فقد مرّ بعدّة مراحل حتى وصل إلى ما وصل إليه اليوم من درجة النضج والتقدم، كذلك الأمر بالنسبة لحركة النقد في الجزائر حيث كانت لها بوادر وبدايات سبقت المرحلة التي وصلت لها اليوم.
الكلمات المفتاحية: *بوادر، الحركة، النقد، الجزائر.*

Résumé
Le critique a un rôle très important dans le mouvement littéraire car il est considéré comme son accompagnement. Il est comme les autres ne crée pas de néant. Il passe par diverses étapes pour arriver progressivement à un statut de maturité et de développement. Ainsi comme le mouvement de la critique littéraire en Algérie qui avait de développement et des commencements qui précède l'étape d'aujourd'hui.
Mots-clés *: signes, movement, critique, Algérie.*

Abstract
Criticism has an important role in the literary movement since it is considered as its assessment. It is as other things in the word, it does not come from nothing. It develops gradually until it matures. That is what can be said for the criticism movement in Algeria. It comes as well cross many stages before it will be as we know it.
Keywords*: Signs, The Movement, Critics, Algeria.*

تقديم

لقد مرّت الحركة النقدية في الجزائر بمخاض عسير قبل ميلادها ورؤيتها النور تجسّد ذلك في عدّة مراحل وكثير من الأسباب فما هي هذه المراحل التي مر بها النقد ؟وما هي عوامل عرقلة نضجه؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال الآتي.

أولا: العلاقة بين النقد والأدب

قبل الخوض في الحديث عن حركة النقد في الجزائر لا بدّ أولا من الإشارة إلى قضيّة مهمة رغم قدمها، وهي علاقة النقد بالأدب. وممّا لا يختلف فيه اثنان أنّ هذه العلاقة متينة وحميمة فكلاهما يكمل ويسند الآخر "فالإنتاج الأدبي والإنتاج النقدي متلازمان وكلاهما مفيد للحركة الأدبية"[1]، ومن الصعب وضع حواجز بينهما فالمعروف أن الأديب بقراءاته المتعددة و بالتنقيحات التي يضفيها على أعماله قبل طرحها للقراء يعدّ ناقدا لنفسه، كذلك الأمر بالنسبة للناقد [2] فعمله النقدي يعدّ خلقا جديدا لما ينقده على نحو تظهرمعه القدرة على التذوق والفهم وإيصال ذلك للآخرين.

والأديب المنتج لايحمل قلمه ليتسلى بنظم قصيدة، وكتابة قصّة او مسرحية، بل ليقول شيئا يأخذ بجماح قلبه، ويملأ عليه حياته، ويشغل تفكيره الناضج وذلك بأحد الفنون المعروفة، في فيخرج ذلك في حلّة أدبية جميلة ومن هنا تأتي مهمّة النقد "ذلك أنّ مادة النقد يجب أن تكون قد قامت من أجل خدمة النص الأدبي، والإبانة عمّا في طواياه من جمال والكشف عمّا في خفاياه من أبعاد ودلالات، أو علاقات، أو ثنائيات متشاكلة، أو كل ما يمكن أن تطلق عليه بالتعبير الفلسفي (حقيقة النص)"[3].ومن هنا فرسالة الناقد لا تقلّ أهمية عن رسالة الأديب، فهو صديق له آخذ بيده في طريق التطوّر والتجويد، ومساعد له على تسلّق مراتب السمعة والشهرة، وذلك عن طريق دراسة جمالية العمل الأدبي وكذا تفسيره[4].وليس هذا فحسب "فالناقد يعمل على تبصير الأديب بأخطائه وحسناته وتنبيهه إلى ما يقع حوله من أحداث وتوجيهه إلى أن يقف في جانب الحقّ والخير، وكذا تحديد المذاهب والمدارس الأدبية"[5].

ولا تقتصر مهمّة الناقد عند هذا بل تتعدّاه إلى خدمة القارئ أيضا عن طريق محاولة فهم الأثر المنقود فهما سليما وتقديمه للقارئ تقديما موضوعيا نزيها، يزيل عنه اللبس والغموض الذي يعتريه[6].

---

1 – محمد مصايف، دراسات في النقد والأدب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1988م، ص11

2 – محمد مصايف، دراسات في النقد والأدب، ص11.

3 – عبد المالك مرتاض، في نظرية النقد، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2002م، ص51.

4 – ينظر:محمد مصايف، دراسات في النقد والأدب، ص11-13.

5 – لمرجع نفسه، ص20.

6 – المرجع نفسه، ص13.

وبهذا يكون النقد مزدوج المهام فهو خادم للأدب من جهة، وللقارئ الذي هو غاية الأديب والناقد من جهة أخرى، وهذا ما يجعل رسالة الناقد والأديب تتساويان في المرتبة.

ثانيا: مراحل بوادر النقد في الجزائر

ولقد شهدت الحركة الأدبية في الجزائر ركودا وجمودا يُرجع عبد الله الركيبي أسبابه إلى ضعف الأدب والنقد معا7.ويؤكد ذلك الدكتور أبو القاسم سعد الله ذلك بقوله "كيف نتحدّث عن النقد الأدبي في الجزائر بينما نحن لانعترف أو لا نكاد نصدّق أنّ عندنا أدبا ناضجا شقّ طريقه مع قافلة الأدب العربي المعاصر، أو العالمي؟ "[8]

كما يرى أنّ النقد كان مجرّد محاولات تتلاءم مع المستوى الفنّي للإنتاج الأدبي ويقسّم هذه المحاولات إلى عدّة مراحل رئيسية وهي:

المرحلة الأولى

تتمثّل هذه المرحلة في الحملات التي كان يقوم بها بعض شيوخ الجزائر، يدعون فيها إلى نبذ الجديد والتشكيك في قيمته الفنية والموضوعية، وإلى الأخذ بالقديم لا باعتباره نماذج خالدة ولكن باعتباره تراثا قوميا، ومن هنا يجب التمسك به في العودة إليه مهما كانت قيمته الجمالية، ولهذ ه المرحلة مبرّراتها من الواقع الثقافي آنذاك، وكان على رأس زعماء هذه المحاولات الشيوخ: أبو القاسم الحفناوي، عبد القادر المجاوي، المولود بن الموهوب، محمد بن أبي شنب ومحمود كحول، وذلك في المحاضرات والدروس والنّدوات التي كانوا يلقونها في الثعالبية، ونادي صالح باي، ومدرسة الجزائر، أو في الآراء التي كانوا يدلون بها في الصحافة المحلّية والتوجيهات الشخصية لتلاميذه ومريدهم.

المرحلة الثانية

وهي تظهر فيما كان يدرّسه الشيح عبد الحميد بن باديس لتلاميذه من طرائق في الأدب وأساليبه، من اللفظة الجزئية حتى البناء الكامل، فقد كان للشيخ طريقة خاصة في تناول الحياة كلّها، تشهد له بالحذق والبراعة فقد كان يدعوا تلاميذه والمنتفعين بثقافته إلى بالقديم والجديد معا، القديم في محاسنه ورزانته، والجديد في طلاقته وتطوره، وإذا كانت هذه

7 – عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري، ص283.

8 – بو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط/5، 2007م، ص79.

الدعوة من الشيخ عامة، تشمل أسلوب الإصلاح جميعا، فقد كانت أوضح ما تكون فيما عالجه من وسائل الأدب لتلاميذه ولا سيما في دراسته للكامل والأمالي وغيرها.

المرحلة الثالثة

تأتي على يد الشيخ البشير الإبراهيمي الذي كانت ثقافته الأدبية أوضح من زميله الشيخ ابن باديس، وبينما كان الدرس المشافه الموجّه أغلب على الأخير، كان القلم واللسان أغلب على الشيخ البشير الإبراهيمي. وقد أعطته هذه الميزة ميلا خاصا للنقد والتوجيه فاتّخذ من الصحافة ولا سيما جريدة البصائر منبر القيادة للجيل الجديد في الأدب، سواء فيما كان ينشره من نماذج تثير الإعجاب وتدعوا إلى الاحتذاء، أو فيما كانت تنشره الجريدة-بارشلده- من شروط للأدباء والكتاب الذين يرغبون أن يساهموا في التحرير وكانت صلة البشير الإبراهيمي أكثر بالجيل الذي تخرّج علميا على الشيخ ابن باديس، فقد كان هؤلاء يتحدثون إليه في شؤون الأدب قديما وحديثا، ون ينشدون الشعر بين يديه، وكان الشيخ ينتقدهم بشدّة، ويشير إلى مواطن الضعف ويستحثّ المجتهدين على الاستزادة أو يضع أمامهم النماذج الرائعة من الشعر أو النثر القديم والمعاصر. وقد زاد الأدباء إغراء بالشيخ وإعجابا بآرائه في الأدب وما عرف عنه من كثرة الحفظ وما اشتهر به لسانه من طلاقة وبيان.

المرحلة الرابعة

يعتبر الجيل الذي تخرّج علميا على الشيخ ابن باديس وأدبيا على الشيخ الإبراهيمي زعيما لهذه المرحلة التي تبتدئ بعد الحرب العالمية الثانية. على أنّ هذه المرحلة رغم صلتها الوثيقة بالقديم قد أخذت تتحرر في أسلوبها وموضوعها كما أخذت بعض المذاهب النقدية التي اكتسبتها من ثقافتها المعاصرة فظهر المذهب الواقعي واضحا في إنتاج أحمد رضا حوحو والمذهب السلوكي عند أحمد بن ذياب واحتفظ الشعر ببعض خصائص الرومانتيكية الصارخة كالثورة والشكوى ومن أبرز أصحاب هذه المدرسة حمزة بوكوشة وحوحو وذياب وعبد الوهاب بن منصور ومولود الطياب الذي كان أكثر هؤلاء نقدا وأقربهم إلى الموضوعية الهادئة مع أنّه لم يكن من مدرسة الشيخ الإبراهيمي بل كان ينشر نقده وأبحاثه في مجلة (هنا الجزائر)التي تصدر من هيئة الإذاعة المحلية.

كانت هذه أهم مراحل المحاولات النقدية التي عرفتها الجزائر.[9]

ثالثا: عوامل الركود الأدبي في الجزائر

ويعدّ الركود الأدبي الذي عرفته الجزائر في حقبة معيّنة مرتبط بالبيئة الثقافية والاجتماعية، فلا أحد ينكر تأثير هذين البيئتين على الأديب ورسالته الأدبية، إذ تعدّ التربة التي ينشأ في فيها، وعلى قدر خصوبتها تتغلغل جذوره في الاعماق، وتمتد فروعه في الآفاق فتأتي تمار أعماله يانعة مقنعة[10] فالأديب كما يرى عبد الرحمان شيبان "ينبت في وسط يقدّس حرية الفكر ويمجّد كل دعوة صادقة إلى الحقّ والخير والجمال...ينبت الأديب في جماعة تقدّر إنتاج الأديب وتكافئه على جهوده بما يحسّن شؤونه الاقتصادية"[11]

والأديب الجزائري لم يشذ عن هذه القاعدة، ولم ينأ عن بيئته التي يعتريها التخلف والجمود وعدم الاهتمام بالنتاج الأدبي والتشجيع للأدباء، هذا التشجيع الذي يعدّ حقا من حقوق الأديب وعاملا هاما من عوامل تطوير الإبداع إلى ترقية إمكاناتهم الفنية وتوسيع مداركهم العملية والثقافية، لأنّ التشجيع المادي والمعنوي يخلق جوّا من التنافي بين الأدباء، فالأوّل يوفر له ما يعينه على مواجهة متطلبات الحياة، والثاني يشعره بالدفء والسند وبالتالي يكون هناك إنتاج غزير ومزيد من الخلق والإبداع لدى الأديب، كما يدفعه إلى التساؤل بينه وبين نفسه: لماذا اكتب ؟وما جدوى كلام لا يجد اهتماما وتقديرا؟ وتدريجيا يصل إلى درجة السآمة والقنوط، وربّما اليأس فيقرّر تكسير قلمه والكفّ عن إطلاق صيحات لا صدى ولا مردود لها[12]. ويعبّر أحمد رضا حوحو عن أسباب صدود الأدباء الجزائريين عن الإبداع الفنّي بأنّهم لم يجدوا الميدان الصالح للنطق، لانّهم لم يجدوا الصدى لنداءاتهم، لأنّهم لم يجدوا التربة الخصبة لبذورهم، لانّهم وجدوا جوّا أخرصا تنقصه التجارب، لأنّهم لم يجدوا في دنياهم الأدبية إلّا النكران والجمود، لأنّهم وجدوا عالما يريد ان يجعل منهم هيكلا تنقصه الروح، وهم يلأبون إلّا أن يكون هذا الأدب كما خلقه الله زاخرا بالحيوية والنشاط ليؤدي رسالته الشريفة للمجتمع تامّة غير منقوصة ولا ممسوخة[13].

---

9 - المرجع نفسه، ص80-81.

10 - عمار بن زايد، النقد الأدبي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1990م، ص54.

11 - المرجع نفسه، ص63.

12 - المرجع نفسه، ص64.

13 - المرجع نفسه، ص64.

كما ساعد على ذلك أيضا قلة الصحافة العربية، وندرة المجلات التي تهتم بالقضايا الأدبية والفكرية، وعدم تشجيع الشرفين على الأركان الثقافية في بعض المجلات والجرائد للثقافة الجديدة ونشر نتاج مراسيلهم ممّا أدّى بالحركة الأدبية إلى الاختناق[14].وممّا زاد من تأزّم الوضع ما عبّر عنه رضا حوحو بقوله: "إنّنا لا نملك مطبعة محترمة في كل الجزائر، ولا زلنا حتّى هذه الساعة على مطابع أجنبية تتفضّل علينا بطبع إنتاجنا بعد أنتمص دماءنا إلى آخر قطرة إنّنا فقراء في هذا الميدان ولا نملك من وسائله شيئا، وإذا ألّف أحدنا كتابا ليضعه في رفوف المكتبة الجزائرية الفارغة و قف حائرا...أين يطبعه ؟ ومن يتكلّف بطبعه؟ وكيف ينشره ومن يتكلّف بتوزيعه وبيعه؟ ثم من أين له النقود لنفقات الطبع والنشر الباهظة؟ وهو من الذين تجوز فيهم زكاة الفطر فيقف في حيرة أمام هذه المشاكل التي لا يجد لها حلّا...، وليس في وسع الكاتب إلا أن يرمي بمخطوطه في زاوية الإهمال وما أكثر المخطوطات التي تحتلّ أمكنتها في زوايا الإهمال فأنا وحدي أملك منها أربعة.[15]

هذه الأسباب وغيرها ساهمت في تقليص مواهب المبدعين ووقفت حائلا أمام ايصال صوتهم والتعبير عما يخالج صدورهم في أبهى الصور الجمالية الفنية التي يرغبون فيها فكان لزاما لذلك ضعف النقد الأدبي في هذه الحقبة.

فجلّ الدراسات والبحوث تجمع على أنّه لا وجود لخطاب نقدي جزائري يستحق الدراسة والتمحيص ضمن أطر الخطاب النقدي وحدوده المنهجية والإصلاحية قبل سنة 1961م، وكل ما هنالك هو مجرّد محاولات قليلة وفقيرة، متناثرة في بعض الصحف والمجلات في شكل مقالات مقتضبة يعوزها التصور النظري والإطار المنهجي كان يدبجها بغض الكتاب أمثال: رمضان حمود ومحمد السعيد الزاهري والبشير الإبراهيمي وابن باديس وأحمد رضا حوحو.....وغيرهم م الأدباء والمشايخ الذين لم نعرف واحدا منهم جغل النقد شغله الشاغل.[16]

14 - شربيط أحمد شربيط، دراسات ومقالات في الأدب الجزائري الحديث، منشورات المكتبة الوطنية، الجزائر، دط، 2007م، ص61-.

15 - عمار بن زايد، النقد الأدبي الجزائري الحديث، ص73-74.

16 - يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، دط، 2002م، ص9.

رابعا: تباشير ميلاد الحركة النقدية في الجزائر

على أنّ البداية الحقيقية للنقد الجزائري كانت على يد الدكتور أبو القاسم سعد الله من خلال كتابه الموسوم ب (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث) عام 1961م. وبعد هذا التاريخ جدّت مستجدّات حياتية شاملة، كان من آلائها أن نهضت تجربتنا النقدية من جديد، وبدأت تباشير دراسة النص الأدبي بروح منهجية أخذت تتطور شيئا فشيئا. بيد أنها ظلت ركاما متناثرا، تعزوه القراءة اللاحقة التي تلمّ شتاته وتقولبه ضمن الإطار الشامل لمناهج النقد الأدبي ونظرياته، وما وُجد منها إنّما كان لا يتجاوز طقوس القراءة الأكاديمية النمطية التجميعية الجامدة التي قصارها الظفر بشهادة جامعية عليا[17].

ولا يمكن عدّ هذه الفترة الزمنية ميلاد الحركة الأدبية –من إنتاج ونقد–بقدر ما يمكن لنا اعتبارها إنذارا بقدوم الربيع وآلام مخاض لولادة، وسحاب يبشر بالخصب والمطر وقد تأخر ظهور هذه الحركة ألى ما بعد سنة 1970م .[18] فرغم كل هذه التعثرات إلّا انّه يعدّ لها الفضل في في ميلاد تيار نقدي جزائري ما فتئ يتطور وينضج شيئا فشيئا حتى أضحى له مكانته في الساحة الادبية النقدية العربية.

17 – المرجع نفسه، ص9–10.

18 – شريبط أحمد شريبط، دراسات ومقالات في الأدب الجزائري الحديث، ص61.